Al Hayat 19 Juin 90

في بلاد غورباتشوف (١ من ٤)

اسطنبول الجديدة

غسان سلامة*

■ تقف المراة، وهي في مكتهل عمرها، على باب الفندق الضخم حيث ينزل النواب السوفيات (ونحن). في يدها يافطة بالروسية عليها صورة شمسية. الصورة لابنها الشاب، ويبدو وسيما. واليافطة تقول: «ابني الوحيد قتل في مولدافيا لأنه كان يتكلم باللغة الروسية». ومولدافيا منطقة الحقها ستالين بالاتحاد السوفياتي بعدما كانت جزءا من رومانيا. وهي اليوم تطالب بعودتها الى رومانيا - الأم. وقد يكون الشاب الوسيم الذي حملت والدته الصورة، اولى ضحايا استفاقة قومية أخرى من قوميات الاتحاد، عبرت عن هويتها المطمورة خلال نصف قرن، بالاعتداء على شاب كان ذنبه الأوحد، انه يتكلم الروسية خارج روسيا.

في اليوم عينه، كان بوريس يلتسين، وهو يتنطح اليوم لتجسيد نهضة الأمة الروسية، يقول: لقد شبع الشعب الروسي من الانفاق على جمهوريات الاتحاد السوفياتي. وفي اليوم نفسه استطاع يلتسين اقرار قانون في برلمان الجمهورية الروسية، مفاده ان قوانين روسيا ستعلو على قوانين الاتحاد السوفياتي في حال التناقض بينهما، وهو نوع حقوقي من انواع اعلان السيادة.

اعتقد كثيرون ان صحوة القوميات السوفياتية ستضعها بالضرورة الواحدة في مقابل الأخرى. وهذا بالفعل ما حصل وما زال يحصل: الارمن ضد الاذربيجانيين، والجيورجيون ضد المسخيت، والاوزبك ضد الطاجيك، وهكذا دواليك. وبالفعل فان الاتحاد السوفياتي يعج حاليا بالحروب المعلنة او الخفية، الساخنة او الباردة، الحاصلة او المقبلة بين القوميات. ولموسكو مصلحة كبرى في حصول هذه الحروب لأنها تبعد عنها بعض الوقت ضرورة إعادة بناء الاتحاد على اسس جديدة.

ولكن المسالة المركزية ليست بين القوميات الطرفية، على الرغم من الدماء التي سالت في مولدافيا، او في باكو او يريفان. انها مسالة اعمق بكثير، تتعلق بوجود الاتحاد السوفياتي نفسه، وبالتالي بسيطرة الامة الروسية عليه. فالهوية السوفياتية في ازمة، وعلاقة روسيا بكل الجمهوريات الأخرى على توتر متزايد. وما ادل على ذلك الا تلك الاضطرابات الدامية التي حصلت خلال وجودنا في موسكو بين الجيش السوفياتي والميليشيات الارمنية المسلحة، رغم الاعتقاد السائد بان المواطنين الارمن ملتصقون بوجود ذاك الجيش، يحتمون به من هجمات جيرانهم الاذريين الاكثر عددا، وعلى الرغم ايضا من ان نظام الاحكام العرفية مفروض على اذربيجان، لا على ارمينيا. وان توترت علاقات موسكو مع ارمينيا، فما بالك عن توترها مع كل الآخرين!

ولموسكو جواب على هذا التحدي العمومي: انشاء نوع من الكومنولث بين الجمهوريات يحل مكان البنية الاتحادية الحالية. ويتضمن المشروع اعطاء صلاحيات واسعة لكل من تلك الجمهوريات، وقبولا ضمنيا بان تغادر بعضها (لا سيما جمهوريات البلطيق الثلاث) الاتحاد. وهكذا يعاد بناء الاتحاد (التي تغطي مساحته الحالية سدس اليابسة!) على اسس من اللامركزية السياسية والاقتصادية الموسعة. ويؤكد لنا ايفانوف، وزير التجارة الخارجية السوفياتي الامر عندما يقول ان للجمهوريات الحق من الآن فصاعدا باعطاء تسهيلات خاصة للمستثمرين الاجانب، مما يعني تنافسا حادا بينها على الدولارات الخضراء الآتية من انحاء العالم.

لكن المسالة ليست بتلك السهولة. فالكومنولث البريطاني نشا على اساس استقلال فعلي لكل بلد، ثم قراره اللاحق بالانتماء للكومنولث. فهل ان موسكو قادرة على القبول باعلان استقلال هذه الدول قبل اعادة تجميعها في اطار جديد، وهل هناك في موسكو من هو مستعد فعلا لهذه المجازفة المحفوفة بالاخطار؟ ثم ان الكومنولث نشا بين دول متباعدة جغرافيا تفصل بينها المحيطات الشاسعة، فهل يمكن لهذه الفكرة ان تنجح في وضع تتجاور فيه الجمهوريات المختلفة وتتنافس وتتحارب على طول امتداد جغرافي ممتد؟ ثم من قال ان التوافق حاصل داخل القيادة السوفياتية على تبني مشروع جذري بالتحول من الاتحاد الى نوع من الكونفيديرالية الهشة؟ ومن قال ان ليس في الكرملين من يفكر ان الوضع الحالي الذي بناه ستالين («ذاك الرجل الحكيم» كما أسر لنا احد كبار رجال الديبلوماسية السوفياتية) هو وضع ملائم لمصلحة موسكو، وهو وضع دام ٧٠ عاما حتى الآن، وبمقدور الجيش السوفياتي، ذي الملايين الاربعة من العسكر، على جعله يستمر الى ما لا نهاية؟

وبينما تتفاعل هذه الاعتبارات في اطراف الاتحاد، تبدو عاصمة الاتحاد نفسها، موسكو الشاسعة، (وقد وجدناها اقل بشاعة بكثير مما كنا نعتقد)، تبدو موسكو نوعا من اسطنبول هائلة تعج فيها القوميات باوجه ابنائها المختلفة، بازياء قومياتها المتمايزة، وبمافياتها العاملة صرفا للعملة، وتهريبا للبضائع، وتنشيطا للسوق السوداء. ارمن ويهود ومسلمون، روس وصينيون وتتار، تختلف الالوان، واشكال القبعات، وفي الاساس يختلف شكل العيون. وتشعر بانك فعلا في عاصمة امبراطورية شاسعة، وفي الواقع، في اخر الامبراطوريات الموروثة من القرن المنصرم. انها اسطنبول قبل رحيل سلاطين بني عثمان، ملتقى قوميات تتجاهل او تتنافس، وتلتقي في المدينة الكبرى حيث تفترض ان لها من الحكم حصة.

ولانها عاصمة السلطنة، فموسكو بعيدة عن ان تكون عاصمة الأمة الروسية الناهضة. فقلب الروس القوميين في مدينة اخرى، في عاصمة القيصر، الناظرة شطر اوروبا وليس صوب آسيا، المتطلعة للبحر لا لليابسة. قلبهم في لينينغراد، مدينة القديس بطرس، وعاصمة القياصرة. وبين القوميين الروس من يؤكد لك ان جمهورية روسيا ستختار لينينغراد عاصمة لها فور قيامها، بينما تتحول موسكو الى مجرد عاصمة للكونفيديرالية القادمة. وان كان الطورانيون قد نقلوا عاصمتهم من اسطنبول نحو انقرة، داخل اليابسة الاناضولية، فالروس القوميون يحلمون بخطوة معاكسة تماما، تنقل عاصمتهم الروحية، وربما السياسية، من الداخل الموسكوفي نحو بحر البلطيق والانفتاح على الغرب. وفي لحظة نشوة، رفع صاحبنا الروسي كاسه متمنيا «استقلال روسيا»، ولما ابدينا تعجبنا من امكان استقلال القلب عن الطرف، والمركز عن الملحقات، اجابنا: «لن يكون ذلك استقلالا، بل هي بالأحرى استقالة من اعباء الامبراطورية وهمومها... تماما كما احسنت بريطانيا وفرنسا وبعدهما اسبانيا والبرتغال بالفعل منذ عقدين او ثلاثة.

هل هو خلاف ديني؟ لا، طبعا لا. ففي نقاط التماس التي تعددت على طول المساحة السوفياتية خلاف بين مسلمين ومسلمين، ومسيحيين ضد مسيحيين، ولا ينبغي لنا، ولو للحظة، ان نعمم الحالة الارمنية - الآذرية على عموم المشاكل السوفياتية، لأن في ثنايا تلك الحالة نوعاً من الخلاف الديني انما الواقع يشير بوضوح الى غلبة الاعتبارات العرقية والقومية على الاختلافات الدينية. والا فكيف نفسر اصرار الجيورجيين، المسيحيين الارثوذكس على الاستقلال عن روسيا المسيحية الارثوذكسية، وكيف نفسر الحروب المختلفة التي تفصل المسلمين السوفيات عن بعضهم في القفقاس وما وراءه؟ نسوق هذا ونحن نعلم تماما ان غورباتشوف اتهم «حفنة من المتدينين المتعصبين» باحداث باكو. ونحن سمعنا في موسكو من يتهم بعض الدول العربية بتشجيع المسلمين السوفيات على الانفصال وبتمويل تبنيهم للأفكار المتطرفة.

ولكن الاكثرية الروسية (اكثر من نصف سكان الاتحاد) ليست معادية للمسلمين، ولا ترى في المسلمين خطرا على استمرار الاتحاد اكبر من الأخطار الاخرى غير

الاسلامية من جمهوريات البلطيق الى اوكرانيا ومنها الى جيورجيا او ارمينيا، وكلها جمهوريات «مسيحية»، وفيها نزعات استقلالية. ويعلم الروس تماما ان ٧٠ مليونا من المسلمين السوفيات تفصلهم فيما بينهم حواجز اثنية ومذهبية عميقة، وان هذه الشعوب لم تتوحد يوما في السابق الا في داخل الاتحاد السوفياتي. ويشير الروس ايضا، الى ان ربع المسلمين السوفيات على الاقل يعيشون داخل حدود جمهوريات روسيا، ثم ان السلطات الاتحادية تعرف تماما ان تفصيل القوميات وتوزيعها قد تم ايام ستالين بطريقة تجعل من اضعفها اكثر التصاقا بموسكو، حماية من اقواها. ولكن الجمهوريات الاسلامية، كغيرها من جمهوريات الاطراف، ضحية نوع من انواع الفطرسة الروسية، التي تميل للاستخفاف بكل هذه النزعات الاستقلالية، ولسان حالهم يقول: ماذا سيصبح كل هؤلاء بدوننا، وماذا كانوا في الاساس قبلنا؟ وكم غضب منا محاورنا الروسي، عندما قلنا له: هكذا بالذات كان يتكلم بنو عثمان عشية فقدانهم للسلطنة!

غير ان المشكلة الدينية موجودة لا كتيار انفصالي، بل كملجا من الملاجئ النفسية العديدة التي يهرب اليها الفرد، وتلتاذ بها الجماعة في ظروف التحولات التاريخية. هناك صحوة دينية، وانما في كل الاديان في الآن معا. بين الارثوذكس صحوة واضحة لمسنا اثارها في نشاط حوالي ثلاثين امراة تعمل تنظيفا في كنيسة موسكو الكبرى تحضيرا لحفلة تنصيب بطريرك الروسيا، الذي صادف انتخابه خلال وجودنا. والبطريرك الجديد ، الكسي، وهو من مواليد استونيا قيل لنا انه من مؤيدي البيريسترويكا المتحمسين على عكس منافسه المطران فيلاريت المعروف بعلاقاته الوثيقة مع اسلاف غورباتشوف في الكرملين. و«الصحوة» لمسناها ايضا عند كاثوليك اوكرانيا الذين الحقهم ستالين قسرا بالكنيسة الارثوذكسية، وهم اليوم في طور اعادة تاسيس كنيستهم المستقلة عن بطريرك موسكو والمرتبطة بالفاتيكان. ولمسنا «الصحوة» نفسها عند من قابلناهم من مسلمي الاتحاد، وقد تضاعف عدد المساجد مرتين خلال ثلاث سنوات في الاتحاد السوفياتي. ولمسنا «الصحوة» نفسها طبعا عند اليهود، ولهم الآن في موسكو دزينة متكاملة من المراكز الثقافية والدينية، ناهيك عن تعبيرهم عن «الصحوة» تلك من خلال الهجرة للخارج، وبالذات الى اسرائيل ولنا لهذا الامر عودة.

ولكن المبالغة في تقدير الجانب الديني خطا. فالاجيال الجديدة تربت على الالحاد، وبدا لنا ان العودة للدين ليست امرا جماهيريا ملحا، بقدر نمو الهويات العرقية: ولقد راينا الكهنة يرتلون في الحديقة الصغيرة التابعة لكنيسة القديس باسيليوس في قلب الساحة الحمراء، دون ان يثير الامر اهتمام المارة المحليين، بقدر اثارته لتعجبنا. لكن «اسطنبول الجديدة» اذنها على انغام اخرى، ليست دينية ولا طقوسية. تعشينا في مطعم جيورجي، وسمعنا فيه مغنين عديدين... بالانكليزية. وانتقلنا في اليوم التالي الى مطعم ارمني وسمعنا مغنين ومغنيات، يرددون الحانا بالانكليزية، ولا يتوقفون عنها الا لتمرير اغنية بالفرنسية. فشهوة الغرب تبدو عندهم اقوى من ذكريات الماضي، ومن فولكلور القوميات بثيابها المزركشة.

وكان السلطات السوفياتية قد استعملت الفولكلور المذكور حتى انهكته في دعايتها الخارجية. ثم ان شهوة الغرب حاضرة، حية، وذكرى الماضي، يتقاسمها اولاد السلطة المركزية مع زعماء السلطات الجديدة التي تنبت هنا وهناك... بينما الاجيال الجديدة ترقص على انغام نيويورك ولندن، واولاد مترجمنا لا يحبون من تلفزيون بلادهم الا افلام «توم وجيري».

حدثنا الجميع عن صراع المؤسسات، والاديان والقوميات، ولكن «اسطنبول الجديدة» فاجاتنا بحدة صراع الاجيال فيها. وربما ان عظام القوم يشعرون بتحدي الشباب ضمنيا، فيرددون الامثال والعبر من «خبرتهم الطويلة»، وهم ينتقدون «حماسة الشباب المعدوم الخبرة» من حولهم. وقد تكون صورة غورباتشوف تملأ غلاف المجلات الاجنبية، لكن الرجل، وحلفاؤه واعداؤه على السواء، نتاج مرحلة سابقة، يديرون كيفما كان عناصر مرحلة انتقالية من تاريخ الاتحاد. اما الشباب، فهو مليء بالحيوية، ان في رقصه على انغام الجاز، او في تسكعه في زوايا ميدان بوشكين، او في تهجمه الحاد على قادة البلاد ايا كانوا.

في المانيا الشرقية، هدم الشباب حائط برلين، وفي براغ جاء الشباب بهافيل رئيسا، وفي بكين كاد طلاب الجامعة ان يسقطوا قيادة دنغ تسياو بينغ الثمانينية لولا قمعهم الدموي. لكن موسكو متاخرة، وكان الكهول والعجزة يحاولون فيما بينهم تاخير ثورة الشباب التي رايناها في برلين وبراغ وبكين. وقد نصل يوما للاعتراف بان النظام الشيوعي الذي ارسى لينين دعائمه، لم يقمع القوميات والاديان والطبقات البورجوازية بقدر قمعه للشباب، من خلال ادخالهم القسري في صلب نظام عسكري - امني - اقتصادي متشدد. وان كان الدكتور جيفاغو يكتشف في نهاية المطاف ان النظام الشيوعي قد خطف منه ابنته الوحيدة، فان قادة الكرملين قد يكتشفون قريبا ان الحلم بنظام اخر قد سرق منهم اولادهم جميعاً.

---

* أستاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الأولى.